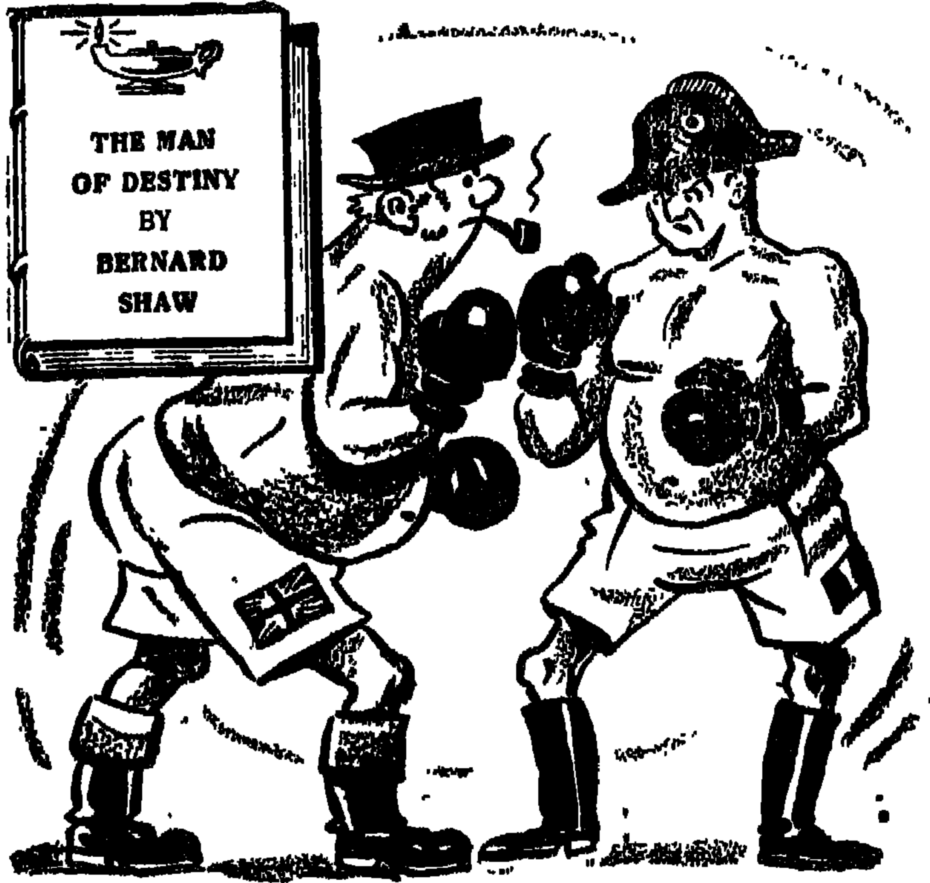


رجل الأقدار !

المسرحية التي وضعها "جورج برنارد شو"
وسخر فيها من الانجليز والفرنسيين !

برنارد شو .. « الخارج » على بلده وأهله !

● لم يوفق كاتب فى التاريخ إلى وصف الإنجليز وأخلاقهم قدر ما وفق الفيلسوف الساخر « جورج برنارد شو » ، ولعله ما كان يجد الجرأة على أن يصارح الإنجليز — وهو يعيش بينهم وينتمى إليهم ويتربع على عرش الأدب لديهم — بعيوبهم المخزية ، لو لم تكن الدماء الأيرلندية الحرة تجرى فى عروقه . وكم تعرض لحملات مقذعة فى هذا الصدد ، ولكن هذه الحملات لم تزد الإنجليز أنفسهم إلا إقبالا على إنتاجه ، واعتزازا بأدبه .. وكان لا يفتأ يقول : « لست أحفل بغير الحقائق الواقعية القائمة .. إن المثالية ليست سوى اسم من الأسماء البراقة التى تخلع على الخيال فى مضمارى السياسة والأخلاق ، فأنا لا أقنع بالمبادئ الخلقية الوهمية ، ولا أخلع حسنا زائفا على اللصوصية والجوع والمرض والجريمة والخمر والحرب والقسوة ، وغيرها من المعالم العامة للحضارة .. تلك المعالم التى تدفع الناس إلى المسرح ينشدون فيه خداعا زائفا أحمق ، يصور لهم تلك الأشياء الواقعية فى ثياب التقدم والعلم والأخلاق والدين والوطنية والتفوق الاستعمارى والعظمة القومية ، وما إلى ذلك من أسماء تبتدع لإخفاء الواقع » !

والمسرحية التالية ليست تمثيلية بالمعنى المفهوم ، وإنما هى مسرحية للقراءة ، كتبها شو « فى لحظة من لحظات الخمول ، فى سنة ١٨٩٥ » كما

قال ، ليعرض فيها آراء صريحة جريئة فى الفرنسيين والإنجليز والحروب والاستعمار .. ولا جدال فى أن شو لو كان حيا فى عام ١٩٥٦ ، لكتب أبدع تحفة على الإطلاق ، فى وصف التحالف الفرنسى الإنجليزى الذى مثل فى بور سعيد أبشع مسرحيات الوحشية !

* * *

● نحن فى اليوم الثانى عشر من مايو سنة ١٧٩٦ .. فى قرية (تافاتسانو) على الطريق بين (لودى) و (ميلان) فى شمال إيطاليا .. والنهار قد تجاوز منتصفه ، وأطلت الشمس على سهول (لمباردى) وهى تتلظى ، فراحت ترمق جبال الألب فى احترام ، وترنو إلى قرى النمل ، غير مشمئزة لنعاس « الحلاليف » فى القرى ، ولا مستاءة لما كانت تستقبل به من فتور فى الكنائس !.. ولكنها أخذت ترمق فى ازدراء طاغ جحافل ضمت أسراب حشرتين شريرتين .. أو بالأحرى جيوش الفرنسيين والنمسويين !.. فلقد حاول النمسويون قبل ذلك بيومين أن يمنعوا الفرنسيين من أن يعبروا النهر على الجسر الضيق القائم عند (لودى) ، غير أن الفرنسيين — بقيادة ضابط فى السابعة والعشرين يدعى « نابليون بونابرت » ، لا يحترم قواعد الحرب ! — اقتحموا الجسر تحت وابل النيران ، مستعينين بمدفعية ضخمة ساهم فيها القائد الشاب بيديه .. فقد كانت المدفعية فنه الذى تخصص فيه . إذ تدرب على المدفعية فى العهد القديم — فى فرنسا — وبلغ الكمال فى الفنون العسكرية .. فنون التكاسل عن واجباته ، وغش « الصراف » بشأن نفقات السفر والانتقال ، وتقدير الحرب بكمية هدير المدافع ودخانها !

وكان لهذا الضابط الشاب جلد غير عادى على العمل ، وإدراك واقعى لطبيعة البشر فى المسائل العامة .. ثم إنه كان واسع الخيال ، ولكنه لم يكن يبنى خياله على أوهام . كما كان مبدعا ، ولكن بلا عقيدة ، ولا ولاء ، ولا وطنية ، ولا أى مبدأ من المبادىء العامة !.. ولم يكن ذلك نتيجة عجز عن استيعاب تلك المبادىء ، بل إنه — على العكس — كان قد استوعبها كلها فى صغره ، وأصبح — بفضل ما أوتى من موهبة تمثيلية مرهفة — قادرا على أن يستغلها ببراعة الممثل ومهارة المخرج المسرحى !

ولقد علمه الفقر ، وسوء الحظ ، والإخفاق المتكرر فى أن يصبح مؤلفا ، وهوان الزجر والصفعات كموظف صغير ، والتأنيب والعقاب كضابط لا يبارى فى عدم الأمانة .. كل هذه اكتسحت الغرور من نفسه ، واضطرته إلى أن يدرك أن الدنيا لا تعطى أمثاله شيئا ما لم ينتزعوه هم بالقوة . فالدنيا — فى هذه الناحية — لا تخلو من جبن وطيش !.. ومن ثم فإن نابليون — كمدفعى يهاجم العبث السياسى بلا رحمة — جعل نفسه ذا نفع .. فالواقع أن من المستحيل على إنجلترا أن تعيش — حتى فى الوقت الحاضر — دون أن تفكر من آن إلى آخر فى مدى الخسارة التى منيت بها لأنها حرمت من أن يهزمها هذا الرجل !!

* * *

● **على أنه** — فى ذلك اليوم من أيام مايو سنة ١٧٩٦ — كان الضابط الشاب حديث عهد بالترقية إلى مرتبة « الجنرال » التى حصل عليها باستخدام زوجته فى إغواء المديرين — الذين كانوا يرأسون الحكومة الفرنسية إذ ذاك — وبفضل ندرة الضباط فى فرنسا ، بسبب هجرتهم إلى

الخارج عند قيام الثورة !.. على أن الفضل الأكبر لترقيته كان يرجع — لدرجة كبيرة — إلى إيمانه الجديد بقيمة إطلاق المدافع على الناس !.. وكان جيشه — من حيث الفوضى — خليقا بأن يذهل بعض الكتاب المعاصرين الذين ينظرون إلى نابليون تحت أضواء مجد « الإمبراطور » التى أحاطت به فيما بعد ، على أن نابليون لم يكن قد أصبح إمبراطورا ، بل كان يحاول أن يفرض نفوذه على جنوده بما كان يعرضه عليهم من تظاهر بالشدة . ولكنه لم يكن قد غدا بعد فى منصب يستطيع أن يفرض منه إرادته عليهم بالأسلوب العسكرى .. بالجلد بالسوط ذى التسع الشُّعب! وكانت الثورة الفرنسية قد أبدلت عادة الملكية — فى تأخير دفع مرتبات الجند أربع سنوات — بعادة جديدة هى عدم الدفع على الإطلاق ، اللهم إلا بالوعود والمجاملات الوطنية !.. ومن ثم سعى نابليون إلى جبال « الألب » على رأس رجال مفلسين ، مهلهلى الثياب ، فهم لذلك لم يكونوا مستعدين لأن يحتملوا كثيرا من النظام ، لا سيما إذا كان الشخص الذى يفرضه عليهم جنرالا ناشئا !.. على أن نابليون وجد هذا الظرف أكثر نفعا من ألف مدفع ، إذ قال لجنوده : « إن لديكم الكثير من الوطنية والشجاعة ، ولكنكم لا تملكون نقودا ، ولا ثيابا ، ولا ما تأكلونه تقريبا .. وفى إيطاليا كل هذه الأشياء ، إلى جانب المجد . ومن الممكن أن يجنيها جيش مخلص يقوده جنرال يرى أن النهب حق طبيعى للجندى .. فإلى الأمام يا أبنائى ! » .

وكانت النتيجة كافية لإرضائه ، إذ اجتاح الجيش إيطاليا ، وراح الجنود يحاربون فى النهار ، ويسيرون فى الليل قاطعين مسافات لا تصدقها

العقول ، ليظهروا فى أماكن لا يتصور أحد ظهورهم فيها .. وما كان ذلك لأن كل جندى كان يطمع فى أن يغدو « ماريشالا » ، وإنما لأنه كان يأمل فى أن ينهب نصف « دستة » — على الأقل — من الملاعق الفضية ، فى اليوم التالى !

وجدير بالذكر أن الجيش الفرنسى لم يكن فى حرب مع الإيطاليين ، بل إنه ذهب ليخلصهم من ربقة النمسويين ، وينعم عليهم بنظم الجمهورية الفرنسية .. ولهذا فإن أعمال النهب لم تكن تعتبر أكثر من استباحة لمتاع الأصدقاء ، فخليق بالأصدقاء أن يتقبلوا هذا التنازل شاكرين !! .. وهكذا كان نابليون قادرا على أن يمضى مظفرا — بوجه عام — دون أن يقوم بالمعجزات ، لا سيما وأنه كان متحررا من التقاليد العسكرية ، لا يعبأ بأوامر باريس ، فى حين أن غريمه « بوليو » — القائد النمسوى — كان مقيدا بسياسة رجال الحكم فى النمسا ، وبالفنون العسكرية التقليدية العريقة ، وبعادات المجتمع الأرستقراطى فى (فيينا) !

وكانت هذه الانتصارات خليقة بأن تصنع من نابليون — فيما بعد — إمبراطورا .. كما كان رواء هذا المنصب خليقا بأن يجعل مهمة الروائى مهمة صعبة ، وهو يسجل هذا المنظر الذى جرى فى (تافاتسانو) ، فى مرحلة مبكرة قبل أن يصبح نابليون إمبراطورا !

* * *

● كان خير مأوى فى (تافاتسانو) يتمثل فى فندق صغير ، هو أول ما يصادفه المسافر فى الطريق بين (ميلان) و (لودى) . وكان هذا الفندق يقوم وسط الكروم التى كانت تصلها بالقاعة الكبرى فيه شرفة

واسعة .. وكان أطفال القرية — الذين أثارتهم ظروف الحرب ودخول الفرنسيين قريتهم فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم — موزعين بين الخوف والفضول .. الفضول الذى راح يغريهم بمحاولة استراق النظر إلى نابليون خلال نوافذ القاعة الكبرى ، والخوف من الجندى الحارس الذى كان يقف بباب القاعة ، والذى لم يؤت شاربين حقيقيين ، فرسم على وجهه شاربين بدهان حذاء « الجاويش » الذى كان رئيسا له .. ولكن الحر ، وثقل الزى العسكرى ، أذابا طلاء الشاربين وجعله يسيل خطوطا رفيعة انحدرت على ذقنه وعنقه ، وجعلت شكله سخيفا — فى عين التاريخ بعد مائة سنة ! — ورهيبا فى أعين الأطفال الإيطاليين إذ ذاك .. فكأنه غول لن يلبث أن يغرس « سونكى » بندقيته فى أحدهم ، ثم يرفعه ليلتهمه !

وكان صاحب الفندق — جيسيبى جراندى — رجلا بشوشا ، فى الأربعين من عمره ، فطر على أن يكون مضيفا رائعا ، لا سيما وأنه كان فى أوج الغبطة فى ذلك المساء ، إذ أن نزول القائد فى فندقه كان خليقا بأن يحميه من عبث الجنود !.. وكان نابليون يلتهم الطعام الشهى الذى قدمه إليه « جيسيبى » ، وهو منكب على الخريطة . وما لبث أن طلب من الفندق مدادا أحمر ، فلما لم يجد ، أمره بأن يذبح شيئا ويأتيه بدمه .. وأردف : « اقتل زوجتك ! » .

جيسيبى : حبا وكرامة يا صاحب السعادة ، ولكنى لسوء الحظ لست قويا .. إنها خليقة بأن تقتلنى !

نابليون : سيان عندى أن تقتلها أنت أو تقتلك هى !

ويفرغ نابليون من الأكل ، فينهض ويسير إلى المدفأة ، بينما يقول جيسيبى : « يقولون إنك تعنى بكل شىء عدا الحياة الإنسانية ! » .

نابليون : إن الحياة الإنسانية هى الشىء الوحيد الذى يعنى بنفسه !

جيسيبى : ما أغبانا بجانبك يا صاحب السعادة ؟.. الواقع أننى سأسعد إذ أرقبك حتى تصبح إمبراطورا لأوربا !

نابليون : أمبراطور أوربا ؟.. ولماذا أوربا فقط ؟!

جيسيبى : صحيح .. إمبراطور الدنيا ، لم لا ؟.. الرجال سواء ، وكل بلد كالآخر .. وكل معركة كالأخرى .. اهزم بلدا تهزم الكل !

نابليون : وتحكم الكل ، وتحارب فى سبيل الكل ، وتصبح خادم كل امرىء تحت ستار السيادة على كل أمرىء !.. إننى أمنعك من أن تتكلم عنى !

فيتحول صاحب الفندق ويحدثه عن النزيلة الوحيدة فى فندقه .. سيدة فى الثلاثين من عمرها ، بديعة الحسن . ويقترح جيسيبى أن يستدرجها إلى مائدة القائد ، ولكن نابليون يبدو قلقا ، مشغول البال . فقد كان ينتظر رسولا يحمل إليه أوراقا هامة . ولكنه لا يلبث أن يسمع صوت السيدة وهى تنادى « جيسيبى » فيسأله عنها .

جيسيبى : لقد وصلت إلى هنا قبيل وصول سعادتكم ، فى عربة من عربات فندق النسر الذهبى فى (بورجيتو) .. وهى وحيدة ، لا تصطحب سوى حقيبتى ثياب .. وقد قال الحوذى إنها تركت جوادا فى « النسر الذهبى » .. جواد حرب ، بسرج عسكرى !

ويعجب نابليون ، حتى إذا سمع من الرجل أنها فرنسية ، خطر له أن الجواد لا بد كان لزوجها ، وأن هذا الزوج قد قتل فى المعركة ، وفى تلك الأثناء يصل الرسول الذى كان يرتقبه نابليون .. فإذا هو ملازم شاب طويل القامة ، معتد بنفسه ، عديم الخوف ، عديم الاحترام ، عديم الخيال ، عديم الإدراك . ويقتحم القاعة ، فما أن يرى نابليون ، حتى يؤخذ ، ثم يحييه ، ولكنه لا ينم بمسلكه عن أى توقير !.. ويسأله نابليون عن سر تأخره مائة دقيقة عن الموعد الذى حدده له كى ينتظره فى تلك القرية ، كما يسأله عن جواده .

الملازم : (**يخلع قفازيه فيلقى بهما مع قلنسوته على المائدة وهو واجم**) : آه ، أين جوادى حقا؟.. هذا عين ما أريد أن أعرفه !

نابليون : (**فى سخرية غاضبة**) : حقا ؟.. وأين الرسائل ؟

الملازم : لست أدرى عنها أكثر مما تدرى أنت يا جنرال !.. أحسبنى الآن سأقدم إلى محكمة عسكرية ؟.. لست أحفل ، ولكن .. أؤكد لك يا جنرال أننى لو رأيت ذلك الشاب البرىء المظهر ، فسوف أشوه جماله .. ذلك الكذاب الممشوق القوام !

نابليون : أى شاب برىء المظهر ؟.. اعتدل ، وأدل بحديثك !

ويفهم من حديث الضابط أنه التقى بشاب مليح ، ساذج المظهر ، زعم له أن عينيه تشبهان عينى أخته الوحيدة ، كما بكى حين سمع الضابط يتحدث عن الحبيبة التى فارقها .. واستطرد قائلا :

« وأسلمنى سلاحه وحصانه ورسائله — وهى جد مهمة — وتركنى أرحل بها كلها ليؤكد ثقته بى طبعا .. وكنت أهلا للثقة ، فأعدتها إليه بأمانة ، ولكن هل تتصور أنه غدر بى حين ائتمنته على سلاحى وجوادى ورسائلى لأؤكد ثقتى فيه .. فلم يعد ! اللص ، الغشاش ، الخائن الذى لا قلب له ! » .

وينادى نابليون صاحب الفندق فى غضب ، ويصيح به وهو يغالب طباعه :

« خذ هذا .. هذا الضابط ، فقدم له غذاء ، وأسلمه للفراش إذا وجدت ضرورة .. وعندما يعود إليه عقله ، أعرف منه ما حدث له ثم أحضره إلى هنا ! » .

ويلتفت إلى الضابط فينبئه بأنه فى حكم المعتقل رهن التحقيق .. فيلقى هذا يده على سيفه ، وهو ماض فى حديثه عن غريمه :

« لقد قال لى إنه لم يلتق قط برجل مثلى .. ووضع منديله حول رقبتى لأن بعوضة لدغتنى ! » .

ويخرج الضابط منديلا معطرا ، فيقول جيسيبى لنابليون : « إنه منديل نسوى يا صاحب السعادة » ..

فيأخذ نابليون المنديل ويتأمله ، ويتشممه ، ثم يدسه فى صدر سترته !

الملازم : لقد لاحظت حين مس عنقى أن له يدى امرأة .. ذلك الكلب المخنث الوضيع !

وينبعث إذ ذاك صوت السيدة النزيلة وهى تنادى صاحب الفندق ، فيرهف الضابط سمعه ، ثم يندفع فيختطف سيفه ، ويستله من غمده ،

ويمسك جيسيبى بذراعه قائلا :

« ماذا تظن أيها الملازم ؟.. إنها سيدة .. ألا تسمع ؟.. إنه صوت سيدة » !

الملازم : بل هو صوته .. دعنى !

* * *

● **وتدخل** القاعة سيدة طويلة ، ذات بهاء غير عادى ، ووجه ناعم ينم عن ذكاء وتفكير وتساؤل .. وقسمات دقيقة ، وأنف تشى خياشيمه بحساسية مرهفة .. أما جسمها فمتين البنيان ، يفوق جسم كل من نابليون وصاحب الفندق ، ويكاد يعادل جسم الملازم .. وأما ثوبها فيكشف عن نحر غطى بقطعة من « التل » الأصفر .. وما أن ترى الملازم ، حتى يمتقع وجهها ، بحيث ينم عن شعورها بخطر غير مرتقب ثم تتولاها فى اللحظة التالية موجة من الغضب .. ويصيح الملازم فى انتصار :

« وهكذا عثرت عليك يا فتاى .. اخلع هذا الثوب ! » .

وتستنجد السيدة بنابليون ، فيقول هذا للضابط :

« لماذا تعامل السيدة بهذا الشكل ؟ » .

الملازم : سيدة ؟! .. أنه رجل .. الرجل الذى أكدت له ثقتى فيه !

وتقف السيدة خلف نابليون ممسكة بذراعه تضمه إلى صدرها ، فيقول نابليون :

« هراء يا سيدى .. من المؤكد أنها سيدة (**تفلت السيدة ذراعه وقد تضرج وجهها خجلا**) . ثم إنك معتقل ، فضع سيفك » .

الملازم : أؤكد لك أنها جاسوس نمسوى .. لقد زعم لى بعد ظهر اليوم

أنه من رجال الجنرال ماسينا ، وها هو ذا يخدعك فيقنعك بأنه امرأة !

السيدة : لا بد أنه يعني شقيقي ، فهو من رجال الجنرال ماسينا .. وهو جد شبيه بي !

ويضطر الضابط إلى الخضوع لأمر نابليون ، فيضع سيفه . بينما يقول نابليون للسيدة :

« مع احترامي لأخيك ، فإنني لا أفقه حاجة ضابط من رجال الجنرال ماسينا إلى رسائلي ! » .

ويخرج الملازم وهو يقول :

« لقد أنذرتك يا جنرال ، خذ الحذر » ..

ثم يلتفت إلى السيدة قائلا :

« اعتذاراتي يا سيدتي .. ظننتك نفس الشخص الذي أنشده ، فليس يفرق بينكما سوى أنه من الجنس الآخر ! » ..

وينحني ليقبل يدها ، ولكنه يجفل مأخوذا ، ويروح يحملق فيها ، ثم يقول :

« إن لك نفس يد شقيقك .. ونفس خاتمه ! » ..

فتقول السيدة في عطف :

« إننا توأمان ! » ..

ويتقبل الضابط هذا التبرير ، ويقبل اليد الممدودة إليه ، ثم يخرج مغلقا الباب خلفه ، وإذ ذاك يتخلص نابليون من ارتباكه ، ويتحول إلى السيدة باسطا يده ، قائلا :

« إلّى برسائلى !.. هيا ! » .

وتمد السيدة يديها إلى صدرها تحميه بحركة غير إرادية !

نابليون : إنك خدعت ذلك الغبى ، وتنكرت فى زى رجل .. هاتى رسائلى !.. إنها فى صدر ثوبك ، تحت يدك !

السيدة : (**تنحى يدها عن صدرها بسرعة**) ما أقسى حديثك لى .. (**تخرج من صدر ثوبها منديلا وتمسح به عينيها وكأنها تجفف دمعة**) .

نابليون : أرى أنك لا تعرفيننى يا سيدتى ، وإلا لجنبت نفسك عناء التظاهر بالبكاء .

السيدة : (**تصطنع ابتسامة بين الدموع**) بل أعرفك .. إنك الجنرال بونابرتو الشهير (**تتعمد نطق اسمه بالإيطالية ، فيغضب وينطقه بالفرنسية . ثم يفطن إلى المنديل فينتزعه منها**) .

نابليون : (**وهو يخرج المنديل الآخر من صدر سترته**) لقد أعرت الضابط واحدا من مناديلك .. إنهما متشابهان فى النوع ، وفى العطر (**يلقى بهما على المائدة**) إننى فى انتظار رسائلى ، وسآخذها فى غير مجاملة إذا دعت الضرورة !

وتعمد السيدة إلى اللطف ، وإلى التظاهر بضعف الأنوثة ، فلما تخفق فى التأثير عليه ، تثور قائلة إن قلبها لم يعد يحتمل الرعب الذى تسببه نظراته ، وتستطرد قائلة :

« أتظن كل إنسان شجاعا مثلك ؟.. إننى لست شجاعة ، بل إننى أجفل من العنف .. إن الخطر يشقى نفسى ! » .

نابليون : **(فى اغتباط)** فلماذا إذن زججت بنفسك فى الخطر ؟

السيدة : لأنه لم تكن هناك حيلة أخرى . ولكن كل شىء قد فسد الآن ، لا لشىء إلا لأنك عديم الخوف ، عديم القلب ، عديم الشعور !

وتجثو أمامه ضارعة ، ولكنه يظل مصرا على أن يظفر برسائله ، ويصمد أمام نظراتها وحيرتها دون أن يلين ، فتزعم السيدة أخيرا أن الرسائل فى حجرتها ، ولكنه لا يؤخذ بحيلتها . وأخيرا تقول له :

« حسنا ، إنما أريد أن أستبقى منها رسالة شخصية صغيرة ! » .

نابليون : **(فى فتور وصرامة)** أوَ هذا طلب معقول !

السيدة : وهل كل طلباتك معقولة ؟.. إنك تسوق آلاف الأرواح من أجل انتصاراتك ، ومطامعك ، ومصيرك !.. أما أنا ، المرأة الضعيفة ، فلست أطلب سوى شىء تافه !.. إنك لا تعرف الخوف !

* * *

● **ويشعر** نابليون بأنه قد غلب ، فيجلس إلى جوارها على الأريكة .. وتنظر إليه فى خوف ، ولكن بريقا من الأمل يومض فى عينيها ، فتتحول تطرى شجاعته أثناء القتال لعبور النهر فى (لودى) قبل يومين ، فيقول لها :

« هبى أنك لم تجدى وسيلة للحصول على الخطاب إلا بأن تسعى إلىّ عبر الجسر الذى كنا نحارب للاستيلاء عليه .. هبى أن هذه كانت الوسيلة الوحيدة ، الأكيدة ، إذا استطعت أن تتفادى قنابل المدافع ، فهل كنت

تشعرين بالخوف إذ ذاك ؟ » .

السيدة : إلى أبعد الحدود .. ولكنى كنت أمضى فى سبيل بغيتى ، لأنه لا بد لى من الحصول على الخطاب !

نابليون : من أجل خطابى كنت تتحملين الخوف ؟ (**ينهض فجأة ، ويتأهب للخطابة !**) ليس هناك شعور يساور البشر جميعا على السواء ، سوى : الخوف !.. إنه الشعور الوحيد الذى تجدينه بالتأكيد فى نفس أصغر قارع للطبل فى جيشى ، كما هو فى نفسى .. إن الخوف هو الذى يدفع الناس إلى القتال ، ولكن عدم المبالاة هى التى تدفعهم إلى الفرار !.. إن الخوف هو الزر الذى يطلق الحرب من عقالها . الخوف ! إننى أعرفه أكثر مما تعرفينه أنت أو أية امرأة أخرى !.. هل منع الخوف يوما أى رجل من أن ينال ما يبغى .. أو أية امرأة ؟ مطلقا !.. تعالى معى ، وسوف أريك عشرين ألف جبان ، يقتحمون الموت كل يوم لقاء أجر لا يزيد على ثمن كأس من البراندى !.. لا ، إننى لا أهتم بخوفك أو شجاعتك !.. لو أنك اضطررت إلى أن تسعى إلىّ حين كنت فى (لودى) ، لما منعك الخوف ، فما أن تجدى نفسك على الجسر ، حتى يتبدد خوفك أمام الضرورة .. ضرورة الوصول إلى جانبى والظفر ببغيتك . وهبى أنك ظفرت بها بسلام ، وأن خوفك لم يعد خوفا ، وإنما صار قوة ، وإقداما ، ودهاء ، وعزيمة حديدية .. فماذا كنت تجيبين إذا سألك أحد عما إذا كنت جبانة ؟ » .

السيدة : إنك بطل .. بطل حقيقى !

نابليون : هراء !.. ليس هناك شيء اسمه بطل حقيقى !

السيدة : بل هناك فرق بين ما تسميه شجاعتى ، وشجاعتك .. لقد أردت أن تفوز بمعركة (لودى) لمصلحتك !

ويكاد نابليون ينزلق فى الفخ ، ولكنه يتدارك فيصيح :

« لست سوى خادم الجمهورية الفرنسية الذى يقتفى فى تواضع خطى الأبطال القدامى .. إنما أكسب المعارك للإنسانية ، ولوطنى لا لنفسى ! » .

السيدة : (**فى اسيتياء**) إذن فأنت لست سوى بطل نسوى .. مثلى !.. أفتظن أننى كنت أخوض معركة من أجل تلك الرسائل لو أننى كنت أريدها لنفسى ؟.. لا !.. إن جرأتى ليست سوى عبودية .. فأنا لا أستطيع الإقدام على خوض الأهوال إلا بدافع الحب ، أو الإشفاق ، أو الرغبة فى أن أحمى أحدا سواى ! (**يشيح نابليون عنها**) .. فأنت ترى أننى لست شجاعة حقا . ولكن .. بأى حق تزدرينى إذا كنت لا تكسب معارك إلا لسواك .. إلا لوطنك ؟.. هكذا هم الفرنسيون دائما !

وينسى نابليون استياءه لأنها كانت تنطق اسمه بالإيطالية ، فينكر أنه فرنسى . وحين تراجعه المرأة يقول :

« لقد ولدت فرنسى الجنسية ، ولكننى لم أولد فى فرنسا ! » .

ثم يعود فيقول : « على أننا ينبغى أن لا نعيش لأنفسنا يا صغيرتى ، بل

يجب أن نفكر فى الغير ، وأن نعمل من أجل الغير ، وأن نقودهم ونحكمهم فى سبيل خيرهم ، فإن إنكار الذات هو أساس كل نبل حقيقى ! » .

السيدة : (**متنهدة**) آه ، من السهل أن أرى أنك لم تحاوله قط يا جنرال !.. ألم تلاحظ أن الناس يبالغون دائما فى تضخيم قيمة الشىء الذى لم يتأت لهم ؟.. فالفقراء يظنون أنهم لا يحتاجون لغير الثراء حتى يصبحوا سعداء .. وكذلك يمجد كل امرىء الصدق ، والطهر ، وإنكار الذات ، لأنهم لم يحظوا بهذه الفضائل !.. لقد كان من سوء حظى أننى ولدت طيبة . فأنا صادقة ، غير أنانية حقا ، ولكن هذه الخلال كلها ليست إلا جبنا ونقصا فى الشخصية .. (**يلتفت إليها نابليون فى انتباه ، فتمضى فى حرارة مطردة**) ما سر قوتك ؟.. إنه ليس سوى إيمانك بنفسك !.. ففى وسعك أن تحارب وأن تنتصر من أجل نفسك ، وليس من أجل إنسان آخر !.. إنك لا تشعر بخوف أو قلق بشأن مصيرك ، فأنت تعلمنا ما يمكن أن نصير إليه إذا توفرت لنا الإرادة والجرأة (**تركع فجأة أمامه**) ومن أجل هذا كله بدأنا نعبدك !.. لا تحرمنى من أن أقدم لك فروض الطاعة ، فلسوف تصبح إمبراطور فرنسا !

ويرتبك نابليون ، وينبهها إلى أن فى قولها خيانة للوطن ، فتقول :

« أجل ، إمبراطور فرنسا ، ثم إمبراطور أوربا .. وربما إمبراطور العالم ! » ..

وتقبل يده ، فينهضها وقد اغرورقت عيناها انفعالا .. ويربت خدها

متسائلا :

« أفنصبح صديقين ؟ » .

فتبسط له يدها فى غبطة ، وهى تهتف : « أفتدعنى أغدو صديقتك ! أواه !.. لقد أكدت ثقتى بك ! » .

وتنبهه العبارة الأخيرة ، فيجفل ، ويتولاه الغضب ، ثم يهتف :

« أكدت ثقتك بى ، لكى أؤكد بدورى ثقتى بك فأتركك تفلتين بالرسائل ! آه ، لقد جعلت من نفسى غبيا كبيرا مثل ذلك الملازم .. هات الرسائل ، أسرعى ! » .. ولا تفلح معه حيلها ، فيتأهب للانقضاض عليها ، بينما تعقد هى ذراعيها على صدرها وتقف كالشهيدة . ولكنه — بما طبع عليه من ولع بالإخراج المسرحى — لا يمسها ، بل يقف أمامها ، وقد عقد يديه خلف ظهره .. ويفسد بذلك دور « الشهيدة » الذى أرادت أن تمثله !.. ويقول أخيرا :



« هبى أننى تركت نفسى تنصاع للاحترام الواجب نحو جنسك وجمالك وبطولتك وكل ما إلى ذلك .. هبى أننى لا أجد سوى تلك العواطف تقف بين عضلاتى وبين تلك الأوراق التى أريدها ، ولا بد من أن أنالها .. هبى أننى قنعت بالانصراف صفر اليدين ، مع أن غايتى أصبحت فى قبضتى .. أفلا تزدريننى من أعماق أنوثتك ؟.. هل ترضى أية امرأة بأن تكون على هذه الحماقة ؟.. إن بونابرت يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الموقف ، وأن يتصرف كما تتصرف أية امرأة عند اللزوم ! » .

* * *

● وتناوله السيدة حزمة الرسائل أخيرا ، فيبادر إلى فضها وهو يلاحظ أن خاتمها قد فض قبل ذلك ، ويشرع فى فحص محتوياتها . وتقول السيدة وهى تبدى استغراقا فى التفكير :

« إننى آسفة من أجلك » . فيتطلع إليها وهو يهم بتناول أهم ورقة فى الحزمة ، ويسألها عن سبب الأسف ، فتقول :

« إننى لا أقوى على أن أراك تفقد شرفك .. وسعادتك ! » .

نابليون : أفتظنيننى كنت أصبح فيما أنا فيه لو أننى حفلت بالسعادة ؟

السيدة : ولكنك ستبدو مغفلا فى أعين أبناء فرنسا !

نابليون : (فى عجلة) ماذا ؟ (**تكف يداه عن فض الأوراق**) ماذا تعنين ؟.. أهى حيلة جديدة ؟ أفتظنين أننى لا أعرف ما تحويه هذه الأوراق ؟.. إن فيها — أولا — أنباء عن تقهقر القائد النمسوى « بوليو » .. وما أراك إلا جاسوسة أرسلك لتحولى

دون وصول الأنباء إلىّ بأى ثمن ، وكأنما هذا سينقذه منى !..
أما الأوراق الأخرى ، فليست سوى رسائل خاصة بى من
باريس ، لا تعرفين عنها شيئا !

السيدة : لنقتسم الأوراق .. خذ البيانات التى جمعها لك جواسيسك عن الجيش النمسوى ، واترك لى رسائل باريس .. إن شرفى يمنعنى من أن أطلب منك أى خطاب خاص بك ، ولكن فى الحزمة رسالة مسروقة .. رسالة كتبتها امرأة إلى رجل غير زوجها .. رسالة فيها فضيحة وعار .. رسالة غرام لن تفيدك فى شيء ، وأقسم أنك لن تخسر شيئا إذا أعطيتنى إياها .. فهى لم ترسل إليك إلا لإيذاء المرأة التى كتبتها !

نابليون : إذن فلماذا لم يرسل الخطاب لزوج المرأة ؟

السيدة : (**مأخوذة**) آه !.. لست .. لست أدرى !

نابليون : إنما هى قصة بارعة لتحصلى على الورقة .. إننى ككل كورسيكى أحب القصص ، وأستطيع أن أميز بين الجيد منها وغير الجيد .. وعندما يسألك أحد مرة أخرى عن السبب فى أن الرسالة التى تشى بأية زوجة لا ترسل إلى زوجها ، قولى — بكل بساطة — إن الزوج لن يحفل بقراءتها !.. أتظنين أيتها الحمقاء أن أى رجل يحب أن يساق بضغط الرأى العام إلى أن يحدث فضيحة ، وأن يقدم على مبارزة ، وأن يهدم حياته المنزلية ، وأن يفسد حياته العملية ، بفضيحة يمكن أن يتفادى تبعاتها بأن يتجاهلها ؟

السيدة : هب أن الخطاب يمس زوجتك ..

نابليون : انك وقحة ! (يتمالك نفسه) سأصفح عنك ، ولكن .. لا تسمحى لنفسك مطلقا فى المستقبل بأن تضعى فى قصصك شخصيات حقيقية !

وتقول السيدة إن صاحبة الرسالة كانت زميلتها فى المدرسة ، وقد كتبت إليها ترجوها أن تحول دون وقوع تلك الرسالة فى يديه . فيسألها:

« ولماذا أرسلت هذه الرسالة إلىّ أنا ؟ » .

السيدة : لأنها تمس المدير « بارا » !

و « بارا » هو أحد المديرين الذين كانوا يحكمون فرنسا إذ ذاك ، وقد سجل التاريخ أن « جوزفين » — زوجة نابليون — توسطت لديه كى ينال زوجها ما نال من منصب !.. فلا عجب إذن فى أن يقول نابليون للسيدة :

« حذار ، فقد تشتطين فى تماديك .. ما الذى ترمين إليه ؟.. من تكون تلك المرأة ؟ » .

السيدة : مخلوقة تافهة ، حمقاء ، مسرفة ، لها زوج جد قدير وطموح ، يعرفها على حقيقتها تمام المعرفة ، ويدرك أنها كذبت فيما ذكرته له عن سنها ودخلها ومركزها الاجتماعى .. ويعلم أنها لا تملك أن تكون مخلصة لأى مبدأ أو أى شخص .. ومع ذلك ، فهو لا يملك أن ينصرف عن حبها .. وعن أن يستغلها لينال الحظوة لدى « بارا » !

نابليون : (فى غضب مكبوت) هذا انتقامك منى !.. إنك امرأة

بغيضة ، وقبيحة كالشيطان ! اغربى عن وجهى (**تتأمله المرأة ثم تنفجر ضاحكة**) ما الذى يضحكك ؟

السيدة : أيها الجنرال .. لكم رأيت أفرادا من جنسك يتصرفون كالأطفال ، ولكننى لم أر قط عظماء يفعلون ذلك !.. إنك رجل منكود ، فاحتفظ بخطاباتك واقرأ فيها قصة عارك .. إننى لم أعد أرى صديقتى معرضة لأى خطر ، فالواقع أنها لم تكن تفهم زوجها تماما !

وإذ تراه مترددا بين الإقدام على قراءة الرسالة والإحجام ، تقول :

« لا تخف !.. لسوف تجنى منها أشياء كثيرة مسلية .. هناك مبارزة مع بارا .. شجار عائلى .. زواج منهار .. فضيحة مدوية .. حياة عملية مشلولة النمو ! » .

وترقبه وهو غارق فى الحيرة . ولا يلبث نابليون أن يحزم أمره ، فيقدم لها حزمة الرسائل الشخصية ، ولكنها لا تمد يدها إليها ، فيلقى بالحزمة إلى الأرض ويقول :

« لم يكن لك من بغية سوى هذه الرسائل ، منذ عشر دقائق ! » .

فتقول :

« ولكنك لم تكن قد أهنتنى منذ عشر دقائق ! » .

وإذ يعتذر لها ، تسأله :

« ألا تريد أن تقرأ الخطاب ؟ » .

نابليون : ألم تقولى إنه غير موجه لى ؟.. ليس من عادتى أن أقرأ خطابات الغير !

السيدة : فى هذه الحال لا أجد مانعا من أن تحتفظ به ، فكل ما كنت أبغيه هو أن أحول بينك وبين قراءته .

* * *

● وتهم بمغادرة القاعة ، فيسد نابليون عليها الطريق ، وينادى صاحب الفندق فيأمره بأن يسوق إليه الملازم . ثم يتناول حزمة الرسائل فيدسها بعناية فى صدر سترته . وما أن يفد الملازم ، حتى يقول له :

« لم أستطع أن أحصل من السيدة على معلومات تذكر ، ولكن الرجل الذى خدعك هو أخوها بلا شك ، فقد اعترفت هى بذلك .. ومن ثم فعليك أن تبحث عنه . إن شرفك ، ومصير الحملة ، ومستقبل فرنسا ، بل أوربا ، بل الإنسانية ، قد تتوقف كلها على المعلومات التى تضمنتها تلك الرسائل .. فهى من الخطورة بحيث أن إخفاقك فى استردادها سيعرضك للهوان أمام فرقتك . إننى سأكون مسئولا عن عدم تنفيذ ما جاء بتلك الرسائل ، فلا بد لى من أن أبرهن للعالم أننى لم أتسلمها ، مهما تكن عاقبة ذلك بالنسبة إليك ! » .

وعندما ينصرف الضابط ، تتساءل السيدة عن سر تصرف نابليون ، فيطمئنها إلى أن الملازم لن يعثر على أخيها .. وإذ ذاك تقول :

« طبعا ، فليس لمثل هذا الأخ وجود ، ولكن الرسائل فى صدر سترتك ! » .

نابليون : ستجدين أن من العسير إثبات ذلك .. لقد ضاعت الأوراق !

السيدة : ولكن هذا الشاب التعس سيكون الضحية !.. إنك شديد القسوة ، فليس الرجال والنساء بالنسبة لك سوى أشياء

تستعملها لغاياتك ، ولو حطمتها أثناء هذا الاستعمال !

نابليون : من منا الذى حطم هذا الشاب ؟.. من الذى خدعه وأخذ منه الرسائل ؟

السيدة : (**وقد استيقظ ضميرها**) ما فكرت فى هذا مطلقا .. كان هذا إثما منى .. (**متوسلة**) أرجو أن تنقذه من العار .

نابليون : أنقذيه أنت ما دمت بارعة الذكاء .. إننى أكره الجندى الغر !

ويخرج نابليون إلى الحديقة . وفى تلك اللحظة يفد الضابط على القاعة ، فتبدى له السيدة إشفاقها من أن يصيب أخاها أذى على يديه ، ثم تقول :

« إذا أخبرتك بمكانه .. إذا تعهدت بأن أسلمك إياه أسيرا كى تقدمه للجنرال بونابرت ، فهل تقسم بشرفك — كجندى ، وكإنسان مهذب — أن لا تقسو فى معاملته ؟.. لسوف أرد إليك جوادك وسلاحك كذلك ! » .. ويطرب الضابط لهذه الصفقة ، فيحاول أن يقبلها ، ولكنها تروغ منه قائلة :

« أنسيت أن مستقبلك فى خطر .. بل مستقبل أوربا .. ومصير الإنسانية ؟ » .

الملازم : دعك من مصير الإنسانية ، وأعطنى .. قبلة واحدة !

السيدة : لن تنلها إلا إذا أبرأت شرفك كضابط !

وتعده بأن أخاها لن يلبث أن يحضر إلى القاعة بعد ربع ساعة ، وأن يسلم نفسه إليه . ثم تقول :

« والآن ، ألا ترى من الأفضل أن تعالج أمورك مع القائد ، فتحمله على أن

يعدك بأن يعتبر اعتقالك أخي كافيا لتبرئة سمعتك وشرفك .. إنه لا يحجم عن أن يعد بأى شيء فى مقابل ذلك ، ولكن .. لا تدعه يكتشف أنك ذكى ! » .

الملازم : آه ، فهمت .. إنه يغار من الأذكياء !

وترسل له قبلة فى الهواء وهى تخرج . فلا يلبث أن يفد جيسيبى إلى القاعة . ثم يعود نابليون وهو يحكم أزرار صدر سترته ، وقد شحب وجهه ، وبدا مهموما .. فيبادره الملازم قائلا :

« هب أننى ظفرت بذلك الشاب ! » .

نابليون : (فى سخرية) إنك لن تظفر به يا صديقى .

الملازم : لسوف ترى .. ولكن ، هل تعتبر المسألة منتهية إذا جئتك به ؟.. هل تعدل عن العقاب ؟

نابليون : (وقد أومض وجهه بفكاهة باردة) ماذا نفعل به يا جيسيبى ؟.. إنه يخطىء فى كل ما يقول .

جيسيبى : لنجعله جنرالا يا صاحب السعادة ، فيصبح كل ما يقوله صوابا !

ويضحك نابليون للفكاهة ، ثم يقول لصاحب الفندق : « هلا جئت معى لأجعل منك رجلا عظيما ؟ » .

جيسيبى : لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، لا !

نابليون : (يرمقه مفكرا) أقانع أنت بحالك ؟.. أليس بين جوانحك شيطان نهم يطالب بغذاء من العمل والنصر ليل نهار ، ويضطرك إلى دفع الثمن من عرق مخك وجسدك ؟.. شيطان

هو عبدك وطاغيتك فى آن واحد .. نبوغك وهلاكك !.. يحمل لك تاجا فى إحدى يديه ، ومجذاف مركب للعبيد باليد الأخرى .. يمنيك بملك دول العالم على شريطة أن تصبح عبدا له ! (**يلتفت إلى الملازم**) أرجو أن لا أكون قد أثرت الطموح فى نفسك !

الملازم : مطلقا ، فلست أحلق على هذا الارتفاع الشاهق .. إننى قانع بمركزى ، لأن أمثالى مرغوبون فى الجيش .. إن الضابط الصغير مضطر إلى أن يكون سيدا مهذبا ، لأنه كثير الاتصال بالناس . أفتعرف من الذى كسب معركة (**لودى**) ؟.. إنه جوادى !.. إنك تذكر النار الحامية التى تبادلتها مع النمسويين عبر النهر ، فهل لاحظت أين كنت أقف ؟

جيسيبى : يقولون إن الجنرال قفز عن جواده ، وأخذ يطلق المدافع الكبيرة بيديه .

الملازم : هذا خطأ ، فلا ينبغى للضابط أن ينزل إلى مستوى رجاله (**نابليون يرمقه بنظرة تنطوى على خطر**) كان من الممكن أن تظل حتى الآن تصلى النمسويين نيرانك ، لولانا معشر الفرسان .. فقد خضنا جدولا جانبيا ، وانقضضنا على مؤخرة قوات الأعداء .. وإنك لتعلم أنك لم تجرؤ على إصدار الأمر بالاستيلاء على الجسر إلا بعد أن رأيتنا على الضفة الأخرى .. ومن ثم فالفضل لمن عثر على الجدول . وقد كنت أنا أول من اجتازه ، وكان جوادى هو الذى عثر عليه !

نابليون : يا لك من أحمق !.. سآمر بإعدامك لانك أضعت الرسائل !

* * *

● **وهنا يدخل ضابط فرنسي شاب ، يحمل سيفا مغمدا فى قرابه ، فيقول بصوت لا يختلف مطلقا عن صوت السيدة :**

« أيها الملازم .. إننى أسيرك ! » .

ويحملق نابليون فى الضابط مشدوها ، ثم يمسك برسغه ويشده إليه ويروح يتفرس فيه مليا ، ثم يدفعه عنه فى اشمئزاز — وقد أدرك أنه السيدة بعينها :

« أين رسائلى ؟ » .

السيدة : لن يخطر مكانها ببالك قط ، فهى فى أبعد أماكن العالم عن ظنك .. ألم يقابل أحد منكم أختى هنا !.. إنها ساحرة ، وقد استطاعت أن تسحر الجنرال .. افتح سترتك يا جنرال ، تجد رسائلك فى صدرها ! (**تضع يدها على صدره**) آه ، ها هى ذى ! (**تتطلع إلى وجهه فى سخرية**) هل تسمح لى ؟ (**وتفك أزرار السترة ، فتخرج الرسائل وتدفعها نحو جيسيبى الذى يبتعد عنها خوفا من السحر ، ثم تقربها من الملازم فيمسك بسيفه قائلا :**)

ابتعد ! هاك رسائلك يا جنرال !

جيسيبى : لا تمسها يا جنرال .. أحرقها ، وأحرق الساحرة أيضا !

السيدة : (**لنابليون**) هل أحرقها ؟

نابليون : أجل ، أحرقيها .. جيسيبى ، أحضر ضوءا !

ولكن جيسيبى يخاف من الخروج وحيدا فى الظلام — إذ يكون الليل قد هبط فى هذه الأثناء — فيخرج معه الملازم . وتجلس السيدة بعد أن تلقى بالرسائل على المائدة ، وتقول :

« لقد هزمتك يا جنرال .. ولكن ، ألا تحب أن تقرأ هذه الرسائل قبل أن أحرقها . لا بد أنك تكاد تموت من شدة الفضول !.. لقد قرأتها أنا ، ومن ثم فإننى أعرف ما فيها ، أما أنت فلا تعرف ! » .

نابليون : معذرة .. بل إننى قرأتها حين كنت فى الحديقة منذ عشر دقائق .

السيدة : (**تقفز عن مجلسها**) أواه !.. لم أغلبك بعد !.. اننى أعجب بك فى هذه المرة إعجابا صادقا (**تقبل يده**) .. إننى أريد أن أقول لك شيئا ، ولكننى أخشى أن تسىء فهمه .. إننى أعبد الرجل الذى لا يخشى أن يكون وضيعا وأنانيا .. ولست أعنى الضعة والأنانية بمعناهما المألوف ، وإنما أعنى نوعا من البساطة القوية يحيط بك .. فأنت لم تكن راغبا فى قراءة الرسائل ، ولكن الفضول ساورك ، فتسللت إلى الحديقة واطلعت عليها عندما أمنت من الأعين ، ثم عدت متظاهرا بأنك لم تقرأها .. وهذا أحقر عمل عهدته من رجل ، ولكنه كان يحقق لك غرضك ، ومن ثم لم تخش أو تخجل من الإقدام عليه !

نابليون : من أين لك بهذه التعبيرات القذرة ؟.. هل كان جدك صاحب متجر ؟

السيدة : لا ، بل كان إنجليزيا !

نابليون : فى هذا التبرير الكفاية ، فإن الإنجليز أمة من أصحاب المتاجر !.. اسمعى ، سوف أشرح لك حقيقة الإنجليز !.. إن فى الدنيا ثلاثة أنواع من الشعوب : شعوب دنيا ، وشعوب وسطى ، وشعوب عليا .. فالشعوب الدنيا والشعوب العليا تتشابه فى شيء واحد : ذلك أنها لا ضمير لها ، ولا أخلاق .. لأن الأولى تحت مستوى الأخلاق ، والثانية فوقه . ولست أخشى النوعين ، لأن الشعوب الدنيا لا تفطن إلى أنها بلا ضمير ومن ثم فهى ترفعنى إلى مصاف الآلهة ، فى حين أن الشعوب العليا تفتقد الضمير لغير ما غاية أو غرض ، ومن ثم فهى تنحنى أمام إرادتى .. ولسوف ترين أننى أمضى فوق جميع الغوغاء وجميع الطبقات المالكة فى أوربا ، كما يمضى المحراث فوق أرض الحقل !.. على أن الخطر يتمثل فى الشعوب الوسطى ، إذ أنها تمتلك المعرفة والغاية معا . غير أن لها موطن ضعف .. ذلك هو إسرافها فى التقيد بالضمير والأخلاق !

السيدة : إذن فأنت ستتغلب على الإنجليز لأن جميع أصحاب المتاجر من الطبقة الوسطى ؟!

نابليون : لا ، فإن الإنجليز عنصر قائم بذاته . إذ ليس بينهم من ينحط إلى الدرجة التى يعنى فيها بالضمير والأخلاق ، وليس بينهم من يسمو بحيث يتحرر من ربقة الضمير والأخلاق ، .. على أن كل إنجليزى يولد وفى كيانه قوة خارقة تجعله يتوهم أنه سيد العالم ! فهو إذا أراد شيئا ، لم يصارح نفسه بأنه يريده ،

وإنما هو ينتظر فى صبر ، حتى يتسرب إلى ذهنه ـــ بطريقة لا يدريها أحد ـــ يقين بأن من الأخلاق ومن الواجب الدينى أن يهزم أولئك الذين يمتلكون الشىء الذى يبغيه . وإذ ذاك لا يعود ثمة سبيل إلى مقاومته !.. إنه كأرستوقراطى يفعل ما يشاء ويستولى على ما يشتهى .. وهو كتاجر يسعى وراء غايته فى دأب ومثابرة ينبعان عن إيمان دينى قوى وشعور بالمسئولية الأدبية !.. إنه لا يعجز قط عن العثور على المبرر الخلقى ، فهو ـــ بتظاهره بأنه النصير الأكبر للحرية وللاستقلال القومى ! ـــ يتغلب على نصف الدنيا ويضمه إلى مملكته ، ويسمى هذا استعمارا .. وهى كلمة مشتقة من « التعمير » !.. وهو إذا أراد سوقا للبضائع التى يغشها ويزيفها فى (**مانشيستر**) ، أرسل أحد المبشرين ليعلم أهل البلاد ـــ التى يريد أن يتخذها أسواقا له ـــ رسالة السلام ، فيقتل الأهالى المبشر ، وإذ ذاك ينتضى أسلحته للدفاع عن المسيحية ، فيحارب باسمها ، ويغزو باسمها ، ويستولى على السوق كجزاء من السماء !!.. وهو للدفاع عن سواحل جزيرته يضع قسا على سطح سفينته ، ويرفع علما عليه صليب فوق أعلى صار بالسفينة ، ثم يبحر إلى أقصى أطراف الدنيا ، مغرقا وحارقا ومدمرا كل من ينازعه السيادة على البحار !.. وهو يزهو بأن الرقيق يصبح حرا إذا مست قدمه أرضا بريطانية ، بينما هو يبيع أبناء الفقراء من أهله ـــ إذا ما بلغوا

السادسة من العمر — ليعملوا فى المصانع تحت رهبة السياط ، ست عشرة ساعة فى اليوم !.. وهو يقوم فى تاريخه بثورتين ، ثم يعلن الحرب على ثورتنا الوحيدة باسم القانون والنظام !!.. ما من شيء قبيح ، وما من شيء طيب ، إلا وتجدين الإنجليز يفعلونه .. ولكنك لن تجدى قط إنجليزيا يعرض نفسه لأن يظهر بمظهر المخطيء .. فهو يبنى كل أفعالـه على أسس ومبادئ !.. إنه يحاربك بمبادئ وطنية ، ويسرقك بمبـادئ تجارية ، ويستعبدك بمبادئ استعمارية ، ويعيش على عرق المومس البغى باسم الرجولة ، ويؤيد مليكه باسم الولاء ، ثم يقطع رأس مليكه باسم المبادئ الجمهورية !.. دينه دائما هو « الواجب » ، فهو لا ينسى مطلقا أن الأمة التى تهمل واجبها وتنحاز إلى الجانب المضاد لمصلحتها الخاصة ، أمة ضائعة !

السيدة : ولكننى واثقة من أننى لست من الإنجليز فى شيء ، فإن الإنجليز قوم أغبياء !

نابليون : أجل !.. بل إنهم يبلغون فى الغباء أحيانا حدا لا يفطنون معه إلى هزيمتهم !

ويخرج إلى الشرفة ، ويتطلع إلى السماء ، فتخرج السيدة وراءه ، وتضع يدها على كتفه وقد استولى عليها جمال الليل ، وشجعها ظلامه . وتسأله فى رفق :

« ما الذى تتطلع إليه ؟ » ..

فيشير نابليون إلى نجم فى السماء ، ويقول :

« نجمى ! » ..

وتتكىء على كتفه ، فيتطلعان إلى النجم لحظة ، ثم تقول :



« أتعرف أن الإنجليز يقولون إن نجم الرجل لا يكتمل إلا برباط ساق امرأة ؟ » .

نابليون : (فى استنكار واستحياء ، وهو يدفعها عنه ويعود إلى القاعة) يا للمنافقين ! .. لو أن الفرنسيين هم الذين قالوا هذا ، لرفع الإنجليز أيديهم فى ذعر وتظاهروا بالورع !

ويقبل جيسيبى حاملا شمعدانا ، وهو يرتجف ذعرا ، قائلا إن الساحرة قد اختفت دون أن يراها أحد تبرح المكان !.. ويجمع نابليون الرسائل من فوق المائدة ، فتقول السيدة (أو السيد كما كانت تبدو لجيسيبى فى الزى العسكرى) :

« إنك لا تزال تحتفظ بالخطاب فى جيبك ! » .

فيبتسم نابليون ، ويخرج الخطاب فيضمه إلى كومة الرسائل . وتتأمل

السيدة الخطاب قائلة :

« إنه عن زوجة قيصر » ،

فيقول نابليون :

« إن زوجة قيصر فوق الشبهات .. أحرقيه ! » .

ويرقب نابليون الخطاب وهو يحترق ، وقد جلس معتمدا بمرفقيه على المنضدة ، مسلما خديه إلى راحتيه .. فإذا أتت النار على الرسالة ، نظر كل من نابليون والسيدة إلى صاحبه ، فتلتقى نظراتهما ، بينما تتسلل الستار هابطة لتحجبهما عن الأبصار !